أنا كويتى

(إن أعظم اكتشاف يكتشفه الانسان : اكتشاف إنسان)

ـ أنا ! كويتى .

ـ حظى إذن عظيم وسعدى طالع ، ولكن أرجوك أن تقول لى ما اسمك وما عنوانك ؟

ـ سلمك الله ، قلت لك أنا كويتى ، أنا شخص من الكويت وكفى .

ـ فهمت هذا من البداية ، فأرجو أن تعرفنى اسمك وعنوانك حتى أرسل المبلغ الذى دفعته عنى عند شرائى هذه الكمية من السمك ، ولذا أكرر سؤالى ، فما اسمك ؟ وما عنوانك ؟

ـ لا ، لا ، ما تخالف .. أنا ماقمت إلا بجزء بسيط من الواجب علينا تجاهكم ، ياأهلنا ياأهل فلسطين . وما أنا إلا شخص بسيط من الكويت ، أنا كويتى وكفى . بأمان الله

ـ بأمان الله . . .

وهكذا ودعنى هذا الإنسان الذى لم أكن أعرفه من قبل ، وسوف أبقى كذلك لأنه ككل الكويتيين يصنعون المعروف ولا يعلنون عن أنفسهم . بل يتوارون خجلا وحياء ، من مجرد نسبته إليهم . إن هذا الحادث غير الفريد فى الكويت . أثار فى مشاعرى وهيج ذكرياتى ، وأضاء النور أمام تأملاتى . . فقد مرت على أيام ، تراءى لى فيها كل شىء قاتماً أمام عينى ، فالسماء الصافية قد تحولت إلى غيوم مكفهرة ، لتحجب عنى كل نور ، وتخفى من مظاهر الحياة كل جمال ، كأن قوة خرقاء قد عاثت فى الضمير الإنسانى فحولته إلى قانون الغابة ، وتركتنى فى قبضة المصادفات الغاشمة ، لاأرى حولى إلا بؤساً وقسوة ولا أسمع إلا نداء نفسى المفجوعة إلى الذين انقطعت بهم السبل ، فخلفهم موت الأهل والعشيرة وذل الفقر والجوع وفقدان الأمل ، وإلى الذين تشردوا خارج بلادهم يكدحون فى طول الأرض وعرضها ، متحملين قسوة الدهر ، وجور الزمان . ومتطلعاً إلى الإنسان ، كائنا من يكون ، مادام قادراً على إبطال قوة الشر وإيقاظ قوى الخير والحق والعدالة الكامنة فيه .

مكثت هكذا أياماً وليالى كما يمكث آلاف اللاجئين فى معسكراتهم ، أنتظر هذا الإنسان كائناً من يكون ، حتى اعتادت نفسى أن تستأنس بالسكون ، وأن تنظر إلى كل شىء نظرة المتبرم ، وتراكمت الأيام على الأيام وأنا على هذه الحال ، حتى خلت أننى أسرفت فى الانتظار واستنفذت كل قوى الصبر والاحتمال .

وفى اللحظة الأخيرة ، حمل إلى الأثير « إسم الكويت » وإسم صديق عزيز من بلد عربى كريم ، فأخذت الصور تتتابع وتتنافس أمام ناظرى بأشكالها الجديدة الزاهية البراقة ، وتصاعدت الغيوم وانقشعت ، وتجلت السماء بزرقتها وسطعت ، فتلك الهدية المفـــاجئة . « العمل بالكويت » مقرونة إلى طيابة المهدى قد وقعت من نفسى موقع شمس مشرقة ، أضاءت جوانب قلبى المعتم ، وقشعت ضباب فؤادى المظلم ، فأخذت أهيىء النفس « وقد سبقتنى » لاستقبال تاريخ جديد فى بلد جديد ، وكنت أرثى فى ذلك الأمس تلك الحظوظ المظلمة التى لاينفذ السرور إليها . ولكنى أدركت اليوم أن لكل محنة عائضة من الخير ، فقد جلت ساعة فتح الأبواب ودخول البلاد الجديدة « الكويت » . وها أنا ذا أتخيل حين احتضنتنى هذه المدينة العامرة ، أن ضمير الإنسانية قد استفاق من وسنه . فأقبل علينا يواسينا ويضمد جراحنا ، وإن العقل مهما ارتقى وتفنن فى التعرف إلى كفة الأمور ، واستجلاء غوامض الطبيعة ، فإنه لن يستطيع تفهم النفس البشرية ويعلم يقيناً ، مايتجاوب فيها من اثر المؤثر . فأنا أشعر بعجز كبير حين أحاول التعبير عن جزء مما فى هذه النفس من أثر وإرجاع لهذا المؤثر الجديد الطارىء فى حياتى الجديدة ، وهذا المؤثر الجديد الطارىء هو بكل تأكيد ليس الكويت (المكان) بل الكويت (السكان) . . وإنه والله لقول حق ماقاله مغمور من المغمورين :

« إن أعظم اكتشاف يكتشفه الإنسان اكتشاف إنسان »

فقد اكتشفت بدخولى الكويت هذا الإنسان الذى تتضـــاءل أمامه كل قوى الشعراء المبدعين فى الوصف والإطناب ، فلا الكرم ولا الشهامة أو التضحية بكافية لتصوير نفسية هذا الإنسان الكويتى وإيفائه حقه .

فوزى الكيالى

المدرس بالمباركية الثانوية